مجلة أبعاد
ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X
مجلد 08، العدد 02، 2021

هيجل وسؤال الفن والجمال

Hegel and the Question of Art and Beauty

د. أولاحي واسيني[1*]
chardon22@yahoo.fr
[1] كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة جيلالي ليابس – سيدي بلعباس (الجزائر)

****

تاريخ الإرسال: 2021/05/11	تاريخ القبول: 2021/10/31	تاريخ النشر: 2021/12/31

ملخص:

إن إشكالية الفن والجمال إشكالية قديمة، لقد اهتمت بها فلاسفة اليونان الأوائل يأتي على رأسهم كل من أفلاطون وأرسطو. كما أنها نالت إهتمام فلاسفة العصر الحديث، وهنا تبرز فلسفة الفن الهيجيلة، فكانت محاولته الفلسفية والتي تطرقت للفن قد أخذت حيزا كبيرا في كتاباته وانعكست فلسفته المثالية على رؤيته للفن، فلا يمكننا أن نفصل بين فكرة الفن والمطلق عنده، فالإبداع في نظر هيجل هو تحقق الروح في الواقع أين تنسجم الذات مع التجربة، فيصبح الأنا هو الآخر، وبهذا تصبح الروح متناغمة مع الطبيعة.

الكلمات المفتاحية :الفن؛ الجمال؛ هيجل؛ المطلق؛ العقل.

Abstract:

The problematic of art and aesthetics goes back to old ages. It was the concern of many Greek pioneers of philosophy such as Aristotle and Plato followed later by other modern philosophers where the Hegelian philosophy of Art stood out. His philosophical attempts, which tackled the problematic of art, dominated his writings and his ideal philosophy that subsequently came up with his vision about Art.

Thus, it would not be possible to set apart the idea of Art from the absolute. Creativity is then, the realization of the soul in reality where the self harmonizes with the experiment; then the self and aesthetics become harmonious.

Keywords : The art; beauty; hegel; absolute; the mind.

* المؤلف المراسل: chardon22@yahoo.fr

1. مقدمة:

عرف الإنسان الفن منذ القديم فلا تخلو حضارة من الشحنات الشعورية ترتسم في لغة أصحابها أو على ما شيدوه من العمران. فالفن هو مبدأ الحياة وسر وجودها، فهو الذي يعطيها معنى وبه تتحقق السعادة، إذا كانت الغاية من العلم هو تفسير الظواهر تفسيرا عقليا فغاية الفن هو البحث في أعماق الشعور وإخراجه للعالم الخارجي، وبهذا تكون الذات هي نقطة الانطلاق، إن مصدر الفن هو أعماق الذات ومن ثم فهو يختلف عن العلم الذي يعتبر فيه قرب الذات من الموضوع عائقا إيبستمولوجيا.

"إذا كان المبدعون قلة محدودة، فإن المتذوقين كثرة عارمة بل غير المتذوقون قلة تائهة في بيداء الحياة يتلقفها القدر في طريق اليأس والضياع"[1].

هذا يعني أن عالم الفن لا يلجه السواد الأعظم من الناس وإنما نجده عند قلة منهم، والتاعس من لا يعرف قيمة الجمال. إن الصعوبة تكبر عندما نبحث عن الأسباب التي تؤهل هذا الشخص أو ذاك في أن يصبح فنانا، هذا ما فسح المجال أمام تفاسير متعددة كل واحد منها يحاول أن يرصد العوامل المادية والنفسية التي تصنع الفن منهم من يرد الفن إلى نوع من العبقرية والالهام وهذا ما قال به قديما هوميروس وهيراقليطس وأفلاطون ومنهم من جعل من المجتمع أساس ظهور الفن، فالمجمع مهم في صناعة الفنان.

"معنى ذلك أن تحقق الشخصية لا يتم إلا في عالم مشترك، يشعر فيه الفرد بوجود النحن"[2].

بواسطة الفن يتم الاندماج بين الأنا والنحن حسب رأي فيشر، حتى الرغبة التي تحرك الفنان وتتحول إلى عمل إبداعي ليس لها معنى على مستوى الفرد إن لم تتحول إلى كلا. "ولو كان من طبيعة الإنسان أن يكون فردا، لما كان لهذه الرغبة معنى ولا مضمون، لأن الإنسان الفرد يكون في هذه الحالة كلا قائما بذاته"[3].

كما أن الدين كان حافزا منذ القديم في إبراز المواهب فلم يخلو معبد قديم من التزيين والزخرفة فكل ما رسم على الأهرامات ما هي إلا رغبة في العيش بعد الموت، إذ أن

[1] محمد علي أبو ريان، فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، بدون سنة الطبع، ص151.
[2] علي عبد المعطي محمد، فلسفة الفن رؤية جديدة، دار النهضة العربية، بيروت، 1985م، ص 57.
[3] أرنست فيشر، ضرورة الفن، ترجمة أسعد حليم، مكتبة الأسرة، بدون سنة الطبع.

الإسلام أضفى طابعا خاصا على الفن، فعبقريته بادية على الخط كما برع المسلمون في الفن المعماري، فاختلفت الزخارف كما أنهم تفوقوا في فن النحت وبخاصة على المعادن والعاج، فالصلة وثيقة بين الدين والفن ونفس الشيء نجده في القرون الوسطى لقد ازدهر فن العمارة في أوروبا رومانيا كان أم قوطية.

على حد تعبير رمون باير Raymond Bayer إن نشأة الفنون كانت بين جدران المعابد.

غير أن هناك اتجاه آخر لا يعتبر أن المجتمع هو من يدفع الفرد للإبداع ولا العقل هو مهندس الفن فدعا هؤلاء إلى البحث في العالم الداخلي للإنسان فكل إبداع خاضع لمؤثرات سيكولوجية.

وهذا ما تدعو إليه مدرسة التحليل النفسي لفرويد، فنحن سنركز أكثر على الجانب العقلي كيف يمكن للوعي أن يكون وقود الإبداع وهنا بالذات سوف نتلكم عن الفيلسوف الألماني هيجل "إن العمل بالنسبة للفنان عملية عقلية واعية وليس مجرد انفعال أو إلهام، وهو عمل ينتهي بخلق صورة جديدة للواقع"[1]، من هنا تظهر أهمية العقل في العملية الإبداعية، فإيجاد صورة جديدة للواقع لا يتسنى إلا بواسطة الفكر، فالإنتاج الجدير بالتقدير ليس وليد الصدفة وإنما هو نتيجة قصد حقيقي، هذا ما كان يراه فان جوخ Van Gogh إن وراء أية عملية إبداعية جهد تأملي، وهذا ما رآه برغسون "لأنه ألحق الفن بالنظر المحض والتأمل الخالص"[2].

فالعملية الإبداعية تحتاج إلى البحث والدراسة والتعلم، فالعمل الفني ليس وليد الفراغ، ومن ثم يقر أصحاب النظرية العقلية أن كل عمل فني إنما هو نتاج العقل فبراعة ليوناردو في المجال الفني كانت نتيجة دراساته الفكرية العميقة، فكل شيء لم تتم دراسته بشكل نهائي هذا ما كان يردده ليونارد كلما انتهى من عملية بحثية مضنية هكذا كان يعتقد كانط، فلا يمكن أن يكون شعور إستطيقي من غير عقل، فالإبداع الفني ينبع من الفكر "إن فنان الأفكار وحده هو سيد الفنون الجميلة الحقيقي"[3].

2. هيجل والفن:

[1] أرنست فيشر، مصدر سابق، ص 16.
[2] زكريا إبراهيم، مشكلة الفن، دار المصرية للطباعة، ص 158.
[3] علي عبد المعطي محمد، فلسفة الفن رؤية جديدة، مرجع سابق، ص 45.

لقد أعجب هيجل بعلم الجمال فدفعه الفضول إلى التعمق فيه، فبالنسبة إليه الفن هو تحقيق لفكرة المطلق ونتاج العقل مثله مثل المنطق، فالفن ميدان خصب يستحق البحث والاهتمام لهذا ألّف فيه هيجل كتابا اشتهر لدى الفلاسفة والمفكرين بعلم الجمال وفلسفة الفن، إن الفن بالنسبة لهيجل هو مجال من مجالات التأمل الفلسفي.

"إذا كان الفن الجميل بصفة عامة هو موضوع ملائم للتأمل الفلسفي، فإنه ليس بالموضوع الملائم بأي حال من الأحوال للتناول العلمي"[1].

إذن إن مجال الفن يختلف عن مجال العلم فهو مخالف للفكر إنه عالم الشعور والإحساس والتخيل "وأخيرا فإن مصدر الأعمال الفنية هو الفاعلية الحرة للخيال الذي في تخيلاته هو أكثر حرية من الطبيعة"[2].

تتجه فكرة الفن عند هيجل إلى الحقيقة، وتعتبر حلقة في مذهبه الفلسفي فهي رغبة للوصول إلى المثل العليا، إن الفن عنده هو تجسيد للفكرة التي تستمد وجودها من العالم الحسي أين تلتقي الصورة بالمضمون، فكل مضمون بإمكانه أن يتحول إلى صورة وهذا هو عمل الفنان ولكن كثيرا من الأفكار تستعصي التجسيد "الفن في مذهب هيجل هو وضع الفكرة أو المضمون في مادة أو صورة"[3].

إن الفن والدين يعمل كل واحد منهم على تفسير المطلق لكي يفصح الإنسان على أفكاره العميقة وهذه الحقيقة تتجلى بشكل مباشر في النحت أو العمارة وفي صور خيالية كالنثر والشعر، إن هذا الجمال ينعدم في الجمادات بينما نجده يتمظهر وبقوة ويصبح أكثر وضوحا في عالم النبات، فالجمال بهذا المعنى يتسامى على الطبيعة فليس الفن هو محاكاة للطبيعة.

فالإنسان له القدرة على إبداع صورة للجمال أكثر مما يجده في عالمه الواقعي، إن العمل الفني ينطوي على قيمة خالصة لذاتها، فليس هدف الفنان هو جمع الثروة والجري وراء الشهرة، فهيجل يستبعد كل عملية نفعية من وراء صناعة الصورة الجميلة، إن الفن يطلب لذاته، وهو التجسيد للمطلق الذي يعبر عن صورة مثالية

[1] هيجل، علم الجمال وفلسفة الفن، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، مكتبة دار الكلمة، ص 31.
[2] المصدر نفسه، ص 32.
[3] محمد علي أبو ريان، فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة، مرجع سابق، ص 44.

"الجميل هو المطلق في الوجود الحسي، وهو التحقيق الواقعي للصورة المثالية في شكل الظاهرة المحدودة"[1]، لقد تأثر هيجل بفلسفة الفن عند شلينغ، ومنه أخذ فكرة الصورة المثالية التي تتحقق في العالم المحسوس، وأن العالم يقوم على فكرة المطلق والحقيقة هي وعي الروح بذاتها، إن الجمال في الفن أسمى من الجمال في الطبيعة "إن الفكرة الرديئة، التي ربما تخطر ببال، هي أسمى من أي ناتج طبيعي لأن في هذه الفكرة توجد دائما الروح والحرية"[2].

ومن ثم فإن هيجل يعتبر أن العالم الخارجي لا يمثل الحقيقة الواقعية وإنما هو مجرد وهم خادع هذا يعني أن الواقع الحق هو ما هو في ذاته ومن أجل ذاته، فالعالم الحق هو عالم الماهيات والتصورات الفعلية وهذا يذكرنا بعالم المثل عند أفلاطون، فالعالم المعقول هو عالم الصور والمثل العقلية هو وحده العالم الحقيقي، بينما العالم المحسوس هو عالم تغيب فيه الحقيقة ولا يعبر إلا على الوهم، إن إعادة تشكيل الواقع والطبيعة لا جدوى منه، ومن ثم يعتبر هيجل محاكاة الطبيعة لعبة تظل أدنى من الطبيعة في مستواها "لأن الفن محدود في وسائل التعبير، ولا يستطيع أن ينتج إلا أوهاما جزئية... فإنه لا يعطينا بدلا من الواقع ما هو حي إلا صورة هزيلة من الحياة"[3].

فمهمة الفن في نهاية المطاف ليست محاكاة الطبيعة لأن هنا تغيب روائع الفن، فالهدف الأسمى للفن هو أن يحدث في روح الإنسان حضور للحس والشعور والانفعال وإشاعة الحياة فيها، وأن يجعلنا الفن نشعر بكل ما هو مروّع ومخيف وندرك البؤس والشر والشقاء، "وهذه الإثارة للمشاعر في الإنسان لا تتم في التجربة الواقعية، بل عن طريق الوهم"[4]، عن طريق حضور خادع ووهمي تتم إثارة المشاعر، وهنا تبرز حقيقة الفن، كما أن مهمة الفن في نظر هيجل هي كبح وحشية الشهوات فكثيرا ما يستولي الوجدان على الذات، فيسلب من الإنسان إرادته فكلما أخرجها الإنسان في شكل صور وموضوعات كلما تحرر منها فغرائزه تصبح خارج ذاته، فعن طريق الأثر الفني ينتقل المضمون الروحي إلى الوعي، إن الفن هو أكبر معلّم للشعوب هكذا جاء على لسان

[1] عبد الرحمن بدوي، فلسفة الجمال والفن عند هيجل، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1996م، ص 11.
[2] عبد الرحمن بدوي، فلسفة الجمال والفن عند هيجل، مرجع يسابق، ص 21.
[3] المرجع نفسه، ص 24.
[4] نفسه، ص 28.

هيجل، عندما يبلغ الفن أكبر درجة فإنه يصبح ملائم لتفسير المطلق إلى جانب الدين والحياة، إن الفن عند هيجل متنوع ذاتي تعبر عن الموسيقى والشعر وموضوعي يتجلى في فن العمارة والنحت فهو يرمز للفكرة ولا يعبر عنها تعبيرا مباشرا، أما في الموسيقى فيفصح الفن عن الذات، فالصوت يصبح أكبر مترجم للانفعالات التي تصدر عن النفس بينما في الشعر يصل الصوت إلى الكمال لأنه صوت معقول يعبر عن الإنسان والطبيعة ومن ثم يصبح هو الفن الكامل.

لقد أعجب هيجل بالفن الكلاسيكي لانسجام المضمون مع الصورة فيه كفن التمثيل اليوناني فهو يعبر عن جمال محسوس بينما لا يلقى الفن الرومانطيقي نفس الأهمية عند هيجل "في الفن الرومانطيقي يغلب العنصر الروماني فيبدو قصور الأشكال والصور الحسية عن التعبير عن موضوعاته"[1]، فالفن الرومانطيقي يكرّس الصراع فهو لا يسعى لإبراز الروح في هدوئها وسكينتها عكس ما نجده في الشعر الكلاسيكي خاصة عند هوميروس.

لقد عمل هيجل على إدخال الفن في نطاق الجدل ومن ثم فهو يصبو إلى علم تذوق جمالي، فلقد أشار هيجل في كتابه علم الجمال إلى فكرة أساسية تتمثل في أن أساس العلم ليس الشيء الجزئي والظواهر وإنما الجمال لابد أن ينظر لذاته بعيدا عن الموضوعات الجزئية، فالفن في جوهره هو تأمل عقلي.

في نظر هيجل لا يمكن للفن أن يتحقق إلا بشروط تأتي في مقدمتها استطاعة الفن التعبير عن المضمون المراد العمل عليه، بدون ذلك لا يكون التعبير إلا رديئا أما الشرط الثاني فيتمثل في أن يبتعد المضمون عن المجرد، فيجب أن يكون محسوسا عينيا فكل ما يوجد في الروح والطبيعة فهو عيني "الفن نجد أنه يقتضي لتصوراته مضامين عينية، لأن المجرد والعام ليس من شأنهما التفتح على جزئيات ومظاهر دون أن يحدث عن ذلك تحطيم لوحدتها"[2]، أما الشرط الثالث فلابد فيه أن يراع تناظر الشكل المحسوس مع مضمون حقيقي عيني، فالشكل الطبيعي لجسم الإنسان مثلا هو قادر على تصوير الروح والتطابق معها ومع الشكل المحسوس المتمثل في الإنسان وهنا تظهر

[1] محمد علي أبو ريان، فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة، مرجع سابق، ص 48.
[2] عبد الرحمن بدوي، فلسفة الجمال والفن عند هيجل، المرجع السابق، ص 43 – 44.

مهمة الفن فهو تيسير الفكرة على تأملنا فتظهر بشكل محسوس، من ثم تبتعد عن الروحانية المحضة.

فقيمة الفن تتوقف على مدى مطابقة التناظر بين الفكرة والشكل، فالتعبير عن الحقيقة يسير من أعلى إلى أعلى ويكون أثر انطباقا على تصور الروح، وعلى هذا الأساس يقسم هيجل الفنون إلى أقسام رئيسية أولا قسم عام وموضوعه هو الفكرة العامة للجمال أين تلتقي المثل العليا مع الطبيعة من ناحية وبين الإبداع الذاتي من ناحية أخرى.

وقسم ثان من الجمال أين تصبح الفوارق الجوهرية سلسلة من الأشكال الفنية الجزئية.

إنّ صورة الجمال عند هيجل هي الروح المطلقة، فالصورة موجودة في ذاتها ولذاتها إنها الروح الكلي، إنها الروح المطلقة، فهي ليست جزئية متناهية وهنا يظهر التقابل بين الطبيعة والروح، إنّ حقيقة الطبيعة تقوم على مثاليتها وهذه المثالية هي التي تشكل التصور العميق لذاتية الروح. إذا كانت الطبيعة تعبر عن الروح المتناهية فميدان الفن فوق ميدان الطبيعة "إن الجمال الفني لا يوجد في الطبيعة وهو ليس من نوع المنطق ولا يكون جزء من ميدان الروح المتناهية"[1]، وهنا يشترك الفن مع الدين والفلسفة، ففي موضوع مطلق تمارس الروح المتناهية أمرها وتعبر عن الحقيقة المطلقة، فالدّين يتعالى بالإنسان ويجعله يتخلص من مصالحه الشخصية وميوله الخاصة وتنتفي الفردية فيه فكل شيء يصبح كليا مطلقا وتصبح الروح لذاتها وفي ذاتها والفلسفة تأخذ نفس المنحى فهدفها هو الحقيقة، إنها لا تفكر إلا في الحق، إن موضوع الفن والدّين والفلسفة واحد رغم اختلاف الشكل.

إنّ الحرية هي أعلى مضمون يمكن للذات تصوره إنها التحديد الأعلى الروح وبواسطتها تتصالح الذات مع العالم وللحرية مضمونا عقليا، تأتي في مقدمته الأخلاق وتجسده حقيقة الفكرة، إنّ الإنسان بحاجة إلى وجود عالم محسوس فهو لا يقف عند العالم الباطني، لا يبقى حبيس الفكر المحض إن الفن بإمكانه تجاوز العيان الحسي

[1] عبد الرحمن بدوي، فلسفة الجمال والفن عند هيجل، مرجع سابق، ص 60.

ليعطي للحقيقة شكل الانفعالات ومن ثم يمكن إدراك الروح في كليتها "هذه الروح مع الظاهرة الفردية هي التي تكون ماهية الجمال وتمثيله بواسطة الفن"[1].

يعتقد هيجل أن الدين كثير ما يستعين بالفن من أجل جعل الحقائق التي يتكلم عنها أكثر عينية وأيسر للخيال، ويتساءل هيجل ما هو الشيء الذي يدفع بالإنسان إلى الإبداع؟ ويجيب أن هذا الأخير سرعان ما ينفي ذاته فيصبح إثنين ليوجد كيفية الأشياء في الطبيعة وينتقل إلى ذاته، فهو يصوّر ذاته لذاته والإنسان يتمكن من معرفة نفسه انطلاقا من الغوص في ذاته أي في حياته الداخلية فيتمكن من معرفة ما يختلج بداخله من أحاسيس وانفعالات، كما يتمكن من معرفة ذاته عن طريق التأثير في الأشياء الخارجية فهو يعمل دوما على تغيير العالم الخارجي.

فالفن بهذا المعنى هو الذي يشكّل الذات، فالفكرة هي أصل الإبداع ولا توجد إلا داخل الذات. إن أصالة أي عمل فني عند هيجل هي نتاج المعقولية.

"الجمال بالمعنى الحقيقي لا يوجد إلا في الإنسان، لأنّ الجمال تعبير عن الصورة العقلية والصور العقلية لا توجد إلا في عقل الإنسان"[2].

فتجسيد العمل الفني عند هيجل هو خروج الفكرة من الذات إلى العالم الخارجي لتعبر عن الحقيقة ليصبح الفن والحقيقة شيء واحد "لقد قلنا أن الجمال هو الفكر ومن ثم فإن الجمال والحقيقة هما في درب واحد وشيء واحد"[3].

لابد على الفنان أن يستمد موهبته الفنية لا من عالم التجريدات العامة وإنما من مخزن الحياة وأن يكون يتمتع بملكة حفظ للأمور المرئية والمسموعة، وعلى الفنان أن يكون له إطلاع واسع وجهد مستمر وأن يتبع دراسات طويلة.

3. الخاتمة:

ويمكننا القول في نهاية المطاف أن هيجل قد ساهم بشكل كبير في إضفاء على علم الجمال طابعا جديدا انعكست فلسفته المثالية على رؤيته للفن، فلا يمكننا أن نفصل بين فكرة المطلق والفن، فالإبداع هو تحقق الروح في الواقع أين تنسجم الذات مع

[1] المرجع نفسه، ص 63.
[2] عبد الرحمن بدوي، فلسفة الجمال والفن عند هيجل، مرجع سابق، ص 69.
[3] هيجل، علم الجمال وفلسفة الفن، مصدر سابق، ص 182.

التجربة فيتطابق العقل مع الواقع، حينئذ تختفي الثنائية ويكون التطابق بينهما كاملا فيصبح الإدراك هو اللذة، فالجمال هو الإتساق بين الروح والطبيعة.

المصادر والمراجع:

1. علي أبو ريان محمد، فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، بدون سنة الطبع.
2. عبد المعطي محمد علي، فلسفة الفن رؤية جديدة، دار النهضة العربية، بيروت، 1985م
3. فيشر أرنست، ضرورة الفن، ترجمة أسعد حليم، مكتبة الأسرة، بدون سنة الطبع.
4. إبراهيم زكريا، مشكلة الفن، دار المصرية للطباعة.
5. هيجل، علم الجمال وفلسفة الفن، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، مكتبة دار الكلمة.
6. بدوي عبد الرحمن، فلسفة الجمال والفن عند هيجل، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1996م.